﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان: 7 - 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من ذِكر افتراءات المُشركين في الرِّسالة إلى افتراءاتهم في الرَّسول

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة ذِكرَ إنزالِ الفرقان، وذِكرَ طائفةٍ من أقوال أهل البهتان في شأنِ القرآن، ثمَّ الردَّ عليهم؛ ناسبَ أنْ يستكمل الحديثَ في ذِكر افتراءاتهم في شأن الرَّسول، فإنَّ الطَّعن في أحدهما هو طَعْنٌ في الآخر، فلا يُكتفى بالرَّدِّ على الطّاعنين في القرآن، بل لا بدَّ من إتباعِ ذلك الردِّ على الطّاعنين في الرَّسول.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾: (سوق) أَصْلٌ يدلُّ على حَدْوِ الشَّيْءِ، يُقالُ: ساقَهُ يَسوقُهُ سَوْقًا، والسّوق: مَوْضِعُ البياعاتِ، أوِ الموضعُ الَّذي يُجلَبُ إليه المتاعُ للبيع، والجَمعُ أسواقٌ، سُمّيَتْ بها؛ لأَنَّ التِّجارَةَ تُجْلَبُ إِلَيْها، وتُساق المَبيعاتُ نحوَها[1]، وهو المعنيُّ في الآية.

2) ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾: (لقي) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُها يَدُلُّ على عِوَجٍ، والآخَرُ على تَوافي شَيْئَيْنِ، والآخَرُ على طَرْحِ شَيْءٍ[2]، اللِّقاءُ: مقابلةُ الشَّيء ومصادفتُهُ معًا، وقد يُعبَّر به عن كلِّ واحدٍ منهما، يقال: لَقيَهُ يَلْقاهُ لِقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويقال في الإدراك بالحسِّ، وبالبصر، وبالبصيرة، والإِلْقاءُ: طرحُ الشَّيء حيثُ تلقاه، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طرح[3]، والمقصودُ بالإلقاء في الآية: الإعطاءُ، أي: أنْ يُعطى كنزًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (سوق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (لقي).

3) ﴿كَنزٌ﴾: (كنز) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَجَمُّعٍ في شَيْءٍ[1]. "الكَنْزُ: جعْلُ بعضِ المال على بعضٍ وحفظه، وأصله من: كَنَزْتُ التَّمرَ في الوعاء، وزمنُ الكِناز: وقتُ ما يُكْنَزُ فيه التَّمر، وناقةٌ كِنازٌ مُكْتَنِزَةُ اللَّحم ... وقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: 12]، أي: مالٌ عظيمٌ"[2].

4) ﴿مَّسْحُورًا﴾: (سحر) أُصولٌ ثَلاثَةٌ مُتَباينَةٌ: أَحَدُها عُضْوٌ مِنَ الأَعْضاءِ، والآخَرُ خَدْعٌ وشِبْهُهُ، والثّالِثُ وقْتٌ مِنَ الأَوْقاتِ[3]. "السِّحْرُ: عملٌ يُقْرَبُ فيه إِلَى الشَّيْطان وبمَعونَته"[4]، وقيل هوَ: "إِخْراجُ الباطِلِ في صورَةِ الحَقِّ، وقيل: الخَديعَةُ"[5]، والمسحورُ: الذي أصابَه السِّحرُ، فاختلَّ عقلُهُ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

سِتُّ قبائحَ اتُّهِم بها الرَّسولُ؛ لِصَرْفِ النّاسِ عن اتِّباعه

لم يكتفِ المشركون بالافتراء على القرآن الكريم بأنَّه إفكٌ مُفترًى ومُعانٌ على افترائه بغيره، وأنَّه أساطير الأوَّلين، بل امتدَّت أباطيلُهم لتشملَ رسول الله ﷺ؛ بغرض صرفِ النّاس عن اتِّباعه والإيمان به، فزعَموا أنَّه ليس رسولًا؛ لأنَّه بشرٌ يأكلُ الطَّعام، ويمشي في الأسواق، وطالبوا بأنْ ينزلَ إليه ملكٌ ليساعدَه في مهامِّ الرِّسالة، أوْ يُلقى إليه كَنْزٌ يكفيه طلبَ المعاشِ في الأسواق، أوْ تكونَ له حديقةٌ يأكلُ منها، ويأكلونَ معَه من خَيراتها، وزادوا على ذلك أنِ اتَّهموه بالوقوع تحت تأثيرِ السَّحرة، الَّذين سيطروا على عقله وإرادته، فأصابَه اختلالٌ عقليٌّ منهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

التَّعجيبُ من إنكار الكافرين رسالةَ النبيِّ ﷺ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ لعطفِ ما بعدَها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كنز).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (كنز).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).

على جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للتَّعجيبِ من "عقولهم التي يعدّونها أصفى العقولِ أفكارًا، وأعلاها آثارًا، فيما أَبْدَوْه ممّا ظنّوا أنَّه دليلٌ على عدم الرِّسالة، ولا شيءَ منه يصلحُ أنْ يكون شُبهةً، فضلًا عن أن يكون دليلًا"[1]، فالجامعُ بين الجملتين خياليٌّ؛ لتقارن ردِّ الرِّسالة مع رد الرَّسوليَّة في الخيال.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي:

إذا ثبتَ الكفرُ؛ رشَحتْ آثارُه

آثرَ النَّظمُ الحكيم التعبيرَ بفعل القول ماضيًا ﴿وَقَالُواْ﴾؛ لأنَّه يدلُّ بزمانه على تحقُّق صدور هذه الأقوال منهم، وعدمِ الشكِّ أوِ الافتراء في إسنادِها إليهم، ويدلُّ ببنائه على بلوغ ثقتِهم في كلامهم عن رسول الله ﷺ مبلغًا كبيرًا، وفي استعمال فعلِ القول دون الكلامِ مثلًا إشارةٌ إلى أنَّ هذا المقول كانوا يعتقدونَهُ، ويؤمنونَ به، وأنَّهم يتعاملونَ مع الدَّعوة وصاحبِها ﷺ على هذا الأساسِ والمنطلق.

نكتةُ إضمارِ المسند إليه دون إظهاره:

عندما يُعلَم القائلُ البغيض؛ فإضمارُه أبلغُ من إظهاره

آثر النَّظمُ الكريم الإضمارَ على الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ فلم يقل: (وقال الذين كفروا) كما تقدَّم، فأُسنِدَ إلى ضمير الجمعِ العائد إلى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع أنَّ القائلين ليسوا كلَّ الكافرين - لما سبق بيانُهُ من عدم إنكار أحدٍ منهم هذه الافتراءات، وسكوتِهم جميعًا عن رفضها، إضافةً إلى ما فيه من دلالةٍ على أنَّ رسوخَهم في الكفر وراءَ إكثارِهم منها، وللإيماءِ إلى اشتهار هذه الأقوالِ عنهم، فلم ينطقْ بها أحدٌ سواهم، ولنْ يتبادَرَ إلى الذِّهن سواهم.

مقولاتُ الكافرين التشكيكيَّة تتردَّدُ في كلِّ حينٍ وآن

نكتةُ حذفِ متعلّق القول:

ولم يُظهرِ النصُّ الكريم لمَن توجَّه فعلُ القولِ هذا؟ ويحتملُ أنَّهم قالوا ذلك للرَّسول ﷺ، كما يحتمل أنَّهم قالوه لأصحابه ومُتَّبِعيه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 295.

ويرشدُ إليه قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ بالحمل على حقيقة الاتِّباع، ويحتملُ أنَّهم قالوه لمَن يَستمعون كلامَهُ لغرض الاهتداء أوِ النَّقض والردِّ بحمل الاتِّباع على المجاز المرسل بمعنى الاستماع والإصغاء، وكلٌّ ذلك محتملٌ، ومن ثمَّ أبقى النظم ذلك مفتوحًا إشارةً إلى أنَّ قول الكافرين هذا يصلحُ للجميع، ويقولونه للجميع، ولن يتوقَّفَ إلى قيام السّاعة.

غرضُ الاستفهام وبلاغةُ تركيب ﴿مَالِ هَٰذَا﴾:

تعجُّبُ المشركينَ لإنكار الرِّسالة لا للبحثِ عن الحقِّ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾؛ للتعجُّب والإنكارِ لأفعال النبيِّ ﷺ؛ لاعتقادهِم الفاسدِ أنَّ الرسولَ يجبُ أن يكون مَلَكًا، ولا يصحُّ أن يكونَ بشرًا، فيفعلَ أفعالَ البشر، ويُنزَّلَ منازلهم، وهم يريدونَ بذلك إنكارَ رسالتِهِ لا البحثَ عن الحقِّ، وتركيب ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ ونحوِه يفيدُ الاستفهامَ عن أمر ثابتٍ له، فاسمُ الاستفهام مبتدأ، و﴿هَٰذَا﴾ خبرٌ عنه، ومثارُ الاستفهام في هذه الآية هو ثبوتُ حالِ أكلِ الطَّعام والمشي في الأسواق للَّذي يدَّعي الرِّسالةَ من اللّه تعالى[1]، فهم يستفهمونَ عن حالٍ غريبةٍ غيرِ عاقلةٍ أوجبتْ أنْ يكون الرَّسولُ مُمارسًا لعاداتِ البشر بقصد التَّعجيب من تلك الحال والإنكار لصحَّتها، والغرضُ من ذلك نفيُ تلك الحالِ توصُّلًا لإنكار الرِّسالة بالكلّيَّة؛ لأنَّ مَن أنكرَ حالًا ووصفًا؛ اتَّصف به مدَّعي النُّبوَّة ممّا يعتقدُ أنَّه يتنافى معها، فإنَّه ينقضُّ على دعوى الرِّسالة ليفنِّدها، ويُبطلَها.

نوعُ اللامِ ودلالتها:

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ للاختصاص، أي: ما لهذا الرَّسول دونَ غيره يصنعُ كيتَ وكيتَ، والاختصاصُ دالٌّ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 327.

أنَّهم يعتقدون أنَّ الرُّسُل الذين يختارُهم اللّه لا بدَّ أن يكونوا من الملائكةِ المقرَّبين.

غرضُ استعمال اسم الإشارةِ للقريبِ والإبدالِ منه:

غرضُ التَّعبيرِ باسم الإشارة: ﴿هَٰذَا﴾ تعمُّدُ الاستهانةِ بالمشار إليه، والتَّقليلِ من شأنه، فإنَّ لاسمِ الإشارةِ أغراضًا كثيرةً تُعيَّن بحسب السّياق الواردةِ فيه، وقد أتَوا بوصفِ: ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ بدلًا من اسم الإشارة، للاستهزاءِ والسُّخرية؛ لأنَّهم لا يؤمنون برسالته أصلًا، ولا يعترفونَ بنبوَّته، فكأنَّهم قالوا: ما لهذا الذي يزعم أنَّه رسولٌ، يفعلُ أفعالَنا، وينزلُ منازلنا؟ فهو استهزاءٌ بعد استهزاءٍ، وهو ما يدلُّ على عداوةِ المشركين وحسَدهم لرسولِ اللّه ﷺ على ما أعطاه اللّه تعالى من الخير الوفيرِ، كما يحملُ اعترافُهم الظاهريُّ - بأنَّه رسولٌ - دلالةَ التسليم الجدليِّ لغرض المناقضةِ، فكأنَّهم قالوا: لو سلَّمنا أنَّك رسولٌ، فما بالك تفعلُ أفعالَ البشرِ العاديين؟ إذًا لا يمكنُ أن تكون رسولًا.

الاستهزاءُ سلوكُ الحاسدين للتَّخفيف من ألمِ الحقدِ الدَّفين

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع: ﴿يَأۡكُلُ﴾؛ لدلالتهِ على تجدُّدِ الأكلِ من النَّبي ﷺ، الدالِّ على بشريَّته، واحتياجِه المستمرِّ للأكل والشرب، والرَّسولُ لا يكون محتاجًا؛ لما يحتاجه البشرُ العاديّون، كما يتوهَّمون، ونسوا أنَّ الرسول الحقيقيَّ لا بد أن يكون من جنس المبعوثِ إليهم، حتى يقاسيَ ما يقاسونه، ويشتهي ما يشتهونَ، حتّى تكونَ التَّكاليف مقدورًا تنفيذُها بعد أن يكونَ الرَّسولُ من جنسِهم، وإلّا تعلَّلوا بأنَّهم لا يفعلون تلك التَّكاليف؛ لأنَّهم بشرٌ عاديّون، وليسوا ملائكةً مُرسَلين.

الطَّعامُ يُشيرُ إلى تعدُّدِ أصنافهِ وتنوُّعِ ألوانه

بلاغةُ ذِكرِ المفعولِ في اختيارِ مفردة ﴿ٱلطَّعَامَ﴾:

صرَّح النَّظمُ الكريمُ بالمفعولِ به، فقال: ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، وهو

أمرٌ بدهيٌّ؛ لأنَّ الطَّعامَ لا يكون إلّا مأكولًا، والمقصود - بحسب ما يقتضيه الظاهرُ - إثباتُ الحاجةِ إلى الأكل، فلو قال: ﴿يَأۡكُلُ﴾؛ لكفى في بيان المقصودِ، وفي ذلك إمعانٌ في الاستغرابِ، وتلميحٌ إلى ما يحتاجُ إليه الطّاعمُ من التَّخلّي وقضاء الحاجة، فيكون هنالك كنايةٌ عن البشريَّة المحضةِ التي لا تتناسبُ مع كونهِ رسولًا من ربِّ العالمين على حسَب زعمِهم، كما أنَّ في ذكر ﴿ٱلطَّعَامَ﴾ إلماحةً إلى تنوُّعه، إذ الطَّعامُ يكون متنوِّعًا في أنواعه وأصنافه، ففيه إشارةٌ إلى أنَّه ليس مجرَّدَ طالبٍ للأكل، بل هو يبحثُ عن أصناف المطعومات اشتهاءً وتلذُّذًا، وهذا لا يكون - على زعمهم - لمَن كان رسولَ ربِّ العالمين، بل إنَّ التَّصريحَ بالطَّعام يفيدُ العهدَ والتوكيدَ على حدِّ قولهم: (رأيتُهُ بعَيني، ولمَسْتُه بيدي)، فيتقوّى المعنى، ويتوضَّح المرادُ؛ إذ مجرَّدُ الأكل لا يحدِّد أنَّه طعامُ أهلِ الدُّنيا، فأشاروا بالعهد إلى أنَّه الطَّعام المعروف الذي يأكله البشرُ العاديّون، وبذكرِهِ اكتسب الأكلُ توكيدَ الحصول.

فائدةُ الاكتفاءِ بذكرِ الأكل عن الشُّرب:

دقَّةُ الإيجازِ سرُّ الإعجاز

اكتُفي بذكر أكلِ الطَّعام دون شُرب الماءِ؛ لأنَّه من لوازمِهِ وضروريّاته، فما دامَ الطَّعامُ معهودًا، والأكلُ حاصلًا بحيث لا يحتملُ غيرَهُ؛ فإنَّ شُرْبَ الماءِ المعهود يكونُ لازمًا له ومن مقتضياتِه، ففي ذكرِ أكْلِ الطَّعامِ اكتفاءٌ وتحقيقٌ للغرض والغاية.

نوعُ الواو ودلالتها:

عطفُ التَّعجُّب على التعجُّب تقويةُ الإنكارِ

عُطِفتْ جملة: ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ على جملة: ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ لتوافُقِهما في الخبريَّة لفظًا ومعنًى؛ زيادةً في التعجُّب والاندهاش، بسبب قيامِه بعملَين من أعمال البشر العاديّين، وليس عملًا واحدًا، ما يعني أنَّه لا يمتازُ عنهم في شيءٍ، حتى يكون رسولًا دونَهم، فقد اتَّفقتْ كلمةُ الجاحدينَ لنبوَّة الأنبياء على أنَّ الرسولَ

لا يمكنُ أنْ يكونَ من جنس البشرِ؛ إذ قالوا جميعًا لرُسُلِهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: 15]، فكيفَ يختارُ اللّٰهُ بشرًا عاديّين لإنزال رسالةٍ عليهم؟ إلّا أنَّ مشركي مكَّةَ فصَّلوا في تلك البشريَّة، وذكروا على سبيل العطفِ الدليلَ الدّامِغَ على بشريَّة الرَّسول ﷺ معتقدينَ أنَّه يتنافى مع الرَّسوليَّة، ويتقاطع، ويكونُ حجَّةً واضحةً على عدم رسوليَّته ﷺ، وذلك لا ينكرُه الرَّسولُ الكريم، كما لا تنكرُهُ سائر الرسل والأنبياء لقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: 11]، بل يتَّفقُ رسولنا الكريم ﷺ معهم في أنَّه بشرٌ كسائرِ البشر، لكنَّه مرسَلٌ بالتَّبليغ والإنذار، فكأنَّ القرآنَ يؤكِّدُ بشريَّتَه ويحقِّقُ إنسانيَّتَه واتِّصافه بصفات البشر على ألسُن الكفّار من أكلِ الطَّعام والمشي في الأسواق وغيرهما من الصِّفات، لكنَّ ذلك كلَّه لا يتنافى مع كونهِ رسولًا ونبيًّا، وبين المتعاطفَينِ علاقةُ عطفِ السَّببِ على المسبَّب، وهو من أسباب الوصلِ والاقترانِ بين الجمل؛ لارتباطِ المشي في الأسواق تحصيلًا للمال بقضية المعاش التي تتجلَّى بأكل الطَّعام.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

الاستمرارُ على الفعل دليلُ البشريَّة بشكلٍ ظاهرٍ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالمضارع: ﴿وَيَمْشِى﴾، كما وقعَ ذلك في المعطوف عليه ﴿يَأْكُلُ﴾؛ لما يدلُّ عليه من تجدُّد حصول المشي وكثرته، فهو يمشي كغيره طالبًا حاجتَه، مُبتغيًا رزقَهُ، والغرضُ من دعوى الاستمرار على عمَل تلك الحاجاتِ الاستدلالُ على أنَّ ذلك دليلُ الحاجة وسمةُ البشر العاديّين.

بلاغةُ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ:

الانـدهـاشُ من حـرصِ الرَّسـول عـلـى طـلـب المعاش

قُيّد فعلُ المشي بالجارِّ والمجرور: ﴿فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ محالِّ البيع والشراء والمعاملات الماليَّة، وممارسة التجارة؛ للدِّلالة على أنَّه في حاجةٍ إلى المال؛ لابتغاء الأرزاق وطلبِ المعاش، شأنُه شأن الناس، يُقوّيه التَّعبير بالفعل: ﴿وَيَمْشِى﴾ المُشار به إلى تَفَقُّد الأسواق، ومتابعةِ أحوالها

وأسعارِها، بقصد الحرصِ على الاستفادة منها، وبذلك يتناسبُ ذكرُ هذا القيدِ مع قيد الجملة المعطوفِ عليها ﴿ٱلطَّعَامَ﴾، ففي تشخيصِ كلٍّ من الطَّعام والأسواق ما يُغني عن كثيرٍ من الصّوَر الأخرى، فقد مرَّ بنا كيف أغنى ذكرُ أكلِ الطَّعام عن كثيرٍ من صور الاحتياج، وأغنى هنا المشيُ في الأسواق عن صورٍ كثيرةٍ من صور التكسُّب والعمل، فيتحقَّقُ إيجازٌ بالغ في هذين الاكتفائين والصّورتينِ المذكورتين.

توجيهُ تخصيصِ الأكل والمشي بالذِّكر:

إظهارُ ما تكثرُ مشاهدتُهُ لإبطال ما قويتْ حُجَّتُه

خصَّ النظم الكريمُ صورتَي ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ بالذِّكر دون بقيَّة الأحوال البشريَّة؛ "تذرُّعًا منهم إلى إبطال كونهِ رسولًا، لزعْمِهم أنَّ الرَّسول عن الله تكون أحوالُهُ غيرَ مماثلةٍ لأحوال الناس، وخَصّوا أكلَ الطعام والمشيَ في الأسواق؛ لأنَّهما من الأحوال المُشاهدة المتكرِّرة"[1]، فلا سبيلَ لإنكارِهما والتردُّدِ فيهما؛ إذ كلٌّ منهما يصدرانِ على سبيل الحصولِ الدائم، وذلك أقوى في الاحتجاج، وأبلغُ في الإنكار للرسوليَّة على حدِّ زعمِهم الفاسد.

غرضُ استعمالِ أسلوب التَّحضيض:

لا يعني أهلُ الباطل سوى تعجيزِ أهل الحقِّ في مطالبِهم

جيءَ بأداة ﴿لَوۡلَآ﴾ بمعنى: هلّا؛ لحضِّ الرَّسول وحثِّه على تقديم الأدلَّة والبراهين، التي تُثبتُ أنَّ الله تعالى اختصَّهُ بالوحي دونهم، فهي تُفيد التحضيضَ والحثَّ على الإسراعِ في تقديم ما يطلبونَه، وقد سلكوا هذا المسلكَ بغرضِ التعجيزِ والتَّيئيس من اقتناعِهم بكون محمدٍ البشري ﷺ رسولًا من عند الله إليهم، وفيه دلالةٌ على "قِصَرِ نَظَرِهم وركاكة تفكيرِهم؛ لأنَّهم يعتقدونَ أنَّ تميُّزَ الرُّسُلِ لا يكونُ إلّا بأمور ماديَّة، وتجاهلوا أنَّه يحصلُ بما فطرهم الله تعالى عليه من خصالِ الكمال، كما يدلُّ عليه قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110]"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 17.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 426.

دلالةُ بناءِ الفعلِ للمفعول:

يَتحاشى المشركونَ التَّصريحَ بما يُدينُهم

جاء بناءُ الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ للمفعول؛ لأنَّ فاعلَ الإنزالِ - إذا حصلَ - معلومٌ، وهو الله ﷻ، فهم يُطالبون بإنزال الملَك كما أُنزل القرآنُ، ولو صرَّحوا بالمُنزِّل سبحانه؛ لكان ذلك منهم اعترافًا بأنَّ الله تعالى أرسلَهُ رسولًا، كما أنَّ جهالتَهم بالمنزِّل يدلُّ على تكذيبهم ادِّعاء الرسول ﷺ أنَّ الله تعالى أنزلَ عليه القرآن، فلم يُعيِّنوا جهةَ الإنزال بل جعلوها محذوفةً؛ لتدلَّ على أنَّه يدَّعي أنَّ المنزِّل هو اللهُ، وهم غيرُ مصدِّقين بذلك.

نكتةُ استعمالِ ﴿إِلَيْهِ﴾ دون (عليه):

المشركونَ يريدون مَلَكًا تناهى إليه، فيرونَه لدَيه

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّهم يُريدون مشاهدتَهُ معه، ويتحقَّقون من مساعدتِهِ له في القيام بأعباءِ الرِّسالة، يقوّيه التَّعبيرُ بلفظ: ﴿مَعَهُۥ﴾ الدالِّ على المُصاحبة، ولو قالوا: (عليه)؛ لفاتَ معنى المشاهدةِ الَّذي هو قصدُهم من طلَبِ إنزالِ المَلَك إليه، لإفادتِهِ أنَّ "الملَك يتغشّاه بالوحي"[1]، دون أنْ يراه أحدٌ، والقرآن قد صرَّح بأنَّ جبريلَ عليه السلام ينزلُ عليه بالرِّسالة، فهم يريدونَ مَلَكًا تناهى إليه، فيرونَه لديه.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿إِلَيْهِ﴾ على: ﴿مَلَكٌ﴾؛ لأنَّ الاهتمامَ ليس منصبًّا على مجرَّد النُّزول، ولكنَّه منصبٌّ على نزولِهِ إليه تأييدًا ومساعدةً وبرهانًا، كما يفيدُ التقديمُ الاختصاصَ؛ لأنَّ الغرضَ من طلب النُّزول أنْ يكونَ إلى الرَّسول ﷺ دون غيرِهِ من النّاس؛ إذ لم يدَّعِ غيرُه الرِّسالة، فخصَّصوا طلبَ النُّزولِ إليه وحدَهُ حتّى يصدِّقوه فيما يقولُه ويدَّعيه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 298.

غرضُ تنكيرِ ﴿مَلَكٌ﴾:

جيء بلفظ: ﴿مَلَكٌ﴾ نكرةً؛ ليَعُمَّ، إذْ ليس قصدُهم نزولَ مَلَكٍ بعينِه، مثلُ أمينِ الوحي جبريلَ ﷺ، أوْ غيرِه من الملائكة المعروفين، ولكنَّهم يُريدون نزولَ أيِّ واحدٍ من جنسِ الملائكة، بقطعِ النَّظر عن مكانته أوْ منزلته فيهم أو مواصفاتِه؛ لأنَّ الغايةَ هي إثباتُ عجْزِهِ عن ذلك، فإنكارُ الرِّسالة بأكملها، وبذلك يكونون متساهلينَ معه في طلب المؤيِّد له، وتكون حجَّتُهم أقوى وأرصنَ؛ لأنَّهم لم يطلبوا مواصفاتٍ معيَّنةً في ذلك الملاك المطلوب.

لمّا ارتبط الطَّلبُ بالتَّعجيز؛ غابتِ المواصفات

معنى الفاء ودلالتها:

(الفاءُ) في قولهم: ﴿فَيَكُونَ﴾ للسببيَّة، وهي تدلُّ على أنَّ قصدَهم المُعلَنَ من طلبِهم إنزالَ الملَك أنْ يُساعدَهُ في القيام بمهامِّ الرِّسالةِ وأعمالها، أمّا غيرُ المعلَن؛ فهو التَّقليل من شأنِه ووصفِه بالعجز والانصراف عنه إلى المَلَك.

المساعدةُ في أعمال الرِّسالة هي قصدُهم المعلَن

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع: ﴿فَيَكُونَ﴾:

عُبِّر بصيغة المضارع ﴿فَيَكُونَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ بمادَّته على أنَّ الملَك مهيَّأٌ للنِّذارة، ومُكَوَّنٌ من أجل القيام لها وبها، ويدلُّ بزمانِه على قدرته على القيام والمعاونة؛ كلَّما تجدَّدتِ الحاجات والمُهمّات، وإنَّما عدلَ عن القول: (فينذرَ معه)؛ لأنَّ فعلَ الكونِ والوجود يفيدُ استغراقًا وتوكيدًا واستمرارًا للمصاحبة عند الإنذار معه؛ إذ بفعل الكون والحصول تنحصرُ الغاية من إنزال الملك بالنِّذارةِ معه، بخلاف فعل الإنذار وحده، الذي لا يفيد ذلك الانحصار من الحصول.

العدولُ إلى فعل الكون يعطي استغراقًا وتأكيدًا وانحصارًا

غرضُ تقديم: ﴿مَعَهُۥ﴾ على ﴿نَذِيرًا﴾:

قُدِّمَ ذكرُ ﴿مَعَهُۥ﴾ على ﴿نَذِيرًا﴾؛ تقويةً لمعنى المشاهدة، وتأكيدًا لقصد المصاحبة الَّذي يُريدونه من وراءِ طلبهم إنزالَ الملك، فهم لا يريدونَ أن يكونَ نزولُه مُستترًا، بحيث لا يراهُ، ولا يسمعُه إلّا الرَّسولُ

تعليلُ المطالبات تمويهٌ على الغايات

وحدَه، كما هو حاصلٌ، بل يريدون رؤيتَهُ بالعين دائمًا، وألّا يتحوَّل عنها بصعود إلى السَّماء، ليكونَ دليلًا محسوسًا على أنَّه رسولٌ من عند اللّهِ مؤيَّدٌ بمعجزةٍ حسيَّةٍ مُشاهدة، بجانب ما سبقَ ذكره من التَّلميح إلى عَجْز الرَّسول وضعفِهِ بسبب بشريَّتِه عن القيام بمهامِّ الرِّسالة، لا سيَّما مهمَّةُ الإنذارِ، وفي المعيَّةِ دلالةٌ على المتابعة، فيكونُ المنذرُ الرَّئيسُ هو الرَّسولَ ﷺ، ويكونُ المعينُ والمساعدُ هو الملاكَ، وهذا تنزُّلٌ ثانٍ منهم وتساهلٌ بقصد إخراجِ دعواهُم مَخرجَ حُسن النِّيَّةِ في الطَّلب.

نكتةُ تنكيرِ ﴿نَذِيرًا﴾:

التَّعظيمُ وتربيةُ المهابة في قيامِه بالنِّذارة

نكتةُ تنكير ﴿نَذِيرًا﴾ هو التَّعظيم، والمعنى: "ليكون أهيبَ في النِّذارة، بما له من الهَيبة والقوَّة"[1]، فإنَّ شأنَ القويِّ أن يُنذرَ، وأنْ يغلبَ إنذارُه بِشارتَه.

توجيهُ تخصيصِ النِّذارة بالذِّكر:

أكـثرُ مـا يُـزعـج المتكبِّرَ هو عنصرُ النِّذارة

خصَّ المطالبون من المشركين النِّذارةَ بالذِّكر دونَ البشارة؛ لأنَّهم لمّا أُنذروا من قبل الرَّسول ﷺ؛ أصابَهم الحقدُ والغِلُّ، فالنِّذارة هي التي أنبتَتْ حقدَهم عليه[2]، كما أنَّه يُفهم من كلامهم أنَّهم يزعمونَ إنْ نزلَ الملك بأنَّهم على باطلٍ، وهو على حقٍّ، فيحتاجون حينئذٍ إلى النِّذارة أكثرَ من احتياجهم إلى البشارة، وهذا عنصرٌ ثالثٌ من عناصر تساهُلهم في الطَّلب، وذلك بإخراج مطلبهم مطلبَ الميسِّر حتى يكون مسموعًا مقبولًا وأكثر إقناعًا وتيسيرًا.

نكتةُ تقديمِ طلب نزولِ الملك على غيره:

مـا يـعـتـقـدُهُ الـجـاهـلـون يُـقـدِّمـونـهُ في الاحتجاج

قُدِّم ذِكرُ طلبِ نزول الملَك في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكُ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ على غيره من المطالبِ الآتية؛ لأنَّه أعظمُ البراهينِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 298.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 17.

وأكثرُها تعجيزًا، بجانبِ ما فيه من تحقيقِ اعتقادِهم ضرورةَ أن يكونَ الرَّسولُ مَلَكًا لا بشرًا، بصورة غير مباشرة، ولأنَّ هذا الطَّلبَ هو أكثرُ مطالبِهم دَورانًا على ألسنتهم وفي نواديهم ومجالسِهم.

معنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالتها:

قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾ هو البرهانُ الثاني من البراهين التي حثَّ المشركون رسولَ الله ﷺ على الإسراع في تقديمِها؛ تأكيدًا لكونه رسولًا من عند الله، و﴿أَوۡ﴾ حرفُ عطفٍ يُفيد التَّخييرَ والمطالبةَ، والمعنى: إنْ لم ينزِلْ إليه ملكٌ، فليُلقَ إليه كنزٌ يصير به ذا مالٍ كثير، يُغنيه عن طلَبِ المعاش في الأسواق، ويكون ذا مزيَّةٍ، يَستحقُّ بها أن يكونَ بشرًا رسولًا.

التخييرُ بالمطالبةِ تـأكـيـدٌ عـلى المُماطلة

دلالةُ بناءِ الفعل للمفعول:

جيءَ بفعلِ الإلقاء ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾ مُبنيًّا لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ غرضَهم حصولُ الفعل من أيِّ فاعلٍ كان، وليس قصدُهُم حصولَه من فاعلٍ بعينه، وآثروا التَّعبير به لرغبتهم في أنْ يكون دليلًا محسوسًا على أنَّه رسولٌ من عند الله تعالى، كما حملَ حذفُ الفاعل دلالةً على أنَّهم مُكذِّبون له فيما يدَّعيه أنَّه مرسلٌ من الله تعالى إليهم، ولذا طالبوه بإلقاء كنزٍ إليه من الجهة التي يدَّعيها وهم غيرُ عالمِينَ بها، وفي فعل الإلقاء الذي هو الرَّميُ من فوق ما يدلُّ على الاستهانة بالرزّاق تعالى والاستبعادِ لحصوله، والتهكُّم بالنَّبي ﷺ.

لـسـانُ حـالِ المشركين: إلقاءُ الكنزِ أوِ الإصرارُ على الزَّجر

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

جيءَ بالضَّمير العائدِ إلى رسول الله ﷺ مجرورًا بحرف الانتهاء: ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ لرغبتِهم في أنْ يكونَ الإلقاء من السَّماء منتهيًا إليه؛ تأكيدًا لرسالته، وقُدِّم الجارُّ والمجرور على المسند إليه: ﴿كَنزٌ﴾؛ لأنَّ الاهتمام موجَّهٌ إلى حصول إلقاءِ الكنز إليه وحدَه، وليس إلى الإلقاءِ فقط، فيكون هو المقصودَ بالإلقاء، مع ما في ذلك من الإشعار بالسُّخرية.

الإيـمـاءُ إلى سُـخـريـةِ المشركين بسيِّد المُرسَلين

دلالةُ تنكيرِ ﴿كَنزٌ﴾:

المطالبةُ بكنزٍ كبيرٍ ومالٍ وفيرٍ

نُكِّرَ لفظُ ﴿كَنزٌ﴾؛ لإفادة التَّعظيم معنًى وجرْسًا، والمعنى: أنَّهم يُريدون أنْ يكونَ الكنزُ المُلقى إليه كبيرًا وضخمًا يختلفُ عن المالِ المُعتاد، ليُصبح به ذا مالٍ كثيرٍ، يندهشُ الملوكُ والأغنياءُ من كثرته وغرابته وجودتِه، حتى يمتازَ به عنهم، ويُغنيه عن نزول الأسواق لطلبِ المعاش، كما يفعلون، ظنًّا منهم أنَّ نزول الأسواق عملٌ، لا يليقُ بالأنبياء والمرسَلين عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّهم إنْ لم يكونوا ملائكةً؛ فهم إلى الملائكة أقربُ، وفيه دلالةٌ على الخلل في التفكير، والمكابرةِ عن الإيمان، وهم لا يريدون المطالبةَ بكنزٍ معيَّنٍ معهود، بل بكنزٍ غريب في نفاستِه وجودتِه يتحقَّق منه المطلوبُ وهو الكثرة الكاثرةُ، التي يصدقُ وصفُها بالكنز.

بلاغةُ ترتيب الجملِ بحرف ﴿أَوْ﴾:

المطالبةُ بجنَّةٍ تحصدُ الخيرَ الكثير إنْ لم يُلقَ إليه الكنزُ الكبير

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ هو الدليل الثّالثُ الذي حضَّ المشركون رسولَ الله ﷺ على الإسراعِ في تقديمه، وحرفُ العطف ﴿أَوْ﴾ للتخيير والمطالبة، والمعنى: إنْ لم ينزِلْ إليه ملكٌ، ولم يُلْقَ إليه كنزٌ، فلتكن له جنَّةٌ يَكْتفي بما فيها من زروع وثمار، "وتُفَرِّغُه عمّا يفعلُه في بعض الأحيان من طلب المعاش، ويكونُ غناهُ أعزَّ له، وأجلبَ للخواطر إليه، وأحثَّ لعكوف الأتباع عليه، وأجمعَ فيما يريده"[1]، فهو انتقالٌ من المطالبة بالكنز الوفير، إلى جنَّةٍ تأتي بالمال الكثير.

غرضُ ذِكرِ فعل ﴿تَكُونُ﴾ مضارعًا:

صفاتُ الجنَّةِ المطلوبةِ دائمةُ العطاءِ متجدِّدةُ الثِّمار

جاء ذكر الفعل: ﴿تَكُونُ﴾ مضارعًا؛ لما يفيدُه بزمانِه من تجدُّد ثمار الجنَّة وتنوُّعها، بحيث تكفيه الغذاءَ والتفكُّهَ؛ كلَّما تجدَّدت حاجتُه إليهما، وتُغنيه عن نزول الأسواق، وتَحول بينه وبين الاختلاط

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 265.

بالبشرِ، ولما يفيدُه ببنائهِ من ضرورة أن تكونَ هذه الجنَّةُ مشاهدةً معروفةً للقاصي والدّاني؛ لتكونَ دليلًا محسوسًا على اختصاصِهِ بالوحي والرِّسالة، فلا يُصيبُها ما يُصيب بقيَّة الجنّات من آفاتٍ وأمراض، فهي دائمةُ العطاء متجدِّدة الثِّمار.

دلالةُ بناءِ الفعل للفاعل:

الكافرونَ مُنشغلون بالأمور الماديَّة غافلون عن الروحيَّة

بُني الفعل ﴿تَكُونُ﴾ للفاعل، وهو معطوفٌ على فعلٍ مبنيٍّ للمفعول؛ دلالةً على تكالبهم على الدُّنيا، واهتمامِهم الأكبر بها، وانشغالِهم بالأمور الماديَّة التّافهة، وليس بما يمتازُ به أنبياء الله تعالى ورسلُهُ من خصال الكمال البشريِّ، وأسباب الاصطفاء الإلهيِّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور: ﴿لَهُۥ﴾:

إظهارُ الاهتمامِ بتخصيص الجنَّةِ للرَّسول

جيءَ بالضَّمير العائد إلى رسول الله ﷺ مجرورًا بحرف (اللام) المفيدِ للاختصاص، ومقدَّمًا على المسند إليه: ﴿جَنَّةٌ﴾؛ لأنَّ اهتمامَهم منصبٌّ على اختصاصِ الرَّسول ﷺ بالجنَّة، وتكوينها من أجله، وليس منصبًّا على الفعل فقط، وهذا تساهلٌ منهم مجدَّدًا في الطَّلب وتيسيرٌ في الإنجاز، فلم يطلبوا أنْ تكونَ الجنَّة لهم وله معًا، بل تختصُّ به لتكونَ دليلًا على صدقهِ في الرِّسالة إظهارًا منهم لإمكانِ ما يطلبونَه، ويُسرِ ما يريدونه من معجزات وآيات، مع أنَّه كلَّما قدَّم لهم معجزةً؛ اتَّهموه، وكذَّبوه، وطالبوهُ بغيرها.

نكتةُ اختيارِ لفظ ﴿جَنَّةٌ﴾ وتنكيرها:

تعظيمُ الجنَّة بحيث لا يُصيبها فسادٌ، فتكفي على الدوام

نُكِّر لفظ ﴿جَنَّةٌ﴾ للتَّعظيم والتفخيم، بمعنى: أنْ تكونَ الجنَّةُ المخصَّصة له عظيمةً، لا نظيرَ لها، ولا يمتلك أحدٌ مثلَها، حتّى تكفيَهُ، وتكفيَ مَن يريد أنْ يأكلَ منها معَه، "وجعلوا إعطاءَ الجنَّة له علامةً على النُّبوَّة؛ لأنَّ وجودها في مكَّةَ خارقٌ للعادة"[1]، ويظهر من ثنايا هذه المطالبات حاجتُهم لها، وسعيُهم وراءَ تحصيلها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 18.

نكتةُ الوصفِ بالجملة الفعليَّةِ بصيغة المضارع:

تأكيدُ وجودِها على الـدَّوامِ للأكلِ والمشاهدة

في وصف المسندِ إليه: ﴿جَنَّةٌ﴾ بجملة: ﴿يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾ تأكيدٌ للمطالبة بأنْ تكونَ على الدَّوام، غيرَ مُعرَّضة لتلفٍ أوْ فسادٍ، فيبقى الأكلُ مُستمرًّا، وتقريرٌ لمشاهدتِهم لها، وأنَّها صارت دليلًا محسوسًا، وعبَّروا بالمضارع ﴿يَأۡكُلُ﴾ للدَّلالةِ على توفُّرِ غذائها وفاكهتها بصفة متجدِّدة دائمة.

نوعُ (من) ودلالتها:

طمعُ المشركين يُزاحِمُ حُججَهم

قُيِّدَ فعلُ الأكلِ بالجارِّ والمجرور: ﴿مِنۡهَا﴾ لتقويةِ تجدُّد الأكل، وتأكيدِ كفايتها له عن طلب المعاش في الأسواق، وأفاد حرف (من) التَّبعيضَ، فهو يأكل بعضًا منها، ونحن نأكل بعضًا منها، ويُؤيِّده معنى القراءة بالنون في (نأكل)، وهذا يدلُّ على أنَّ طمعَ المشركين يُزاحِم حججَهم وأدلَّتهم التي يزعمون أنَّهم يطالبون بها؛ بحثًا عن الحقِّ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

إسنادُ الأكلِ للرَّسول في قراءة ولهم في أخرى

قرأ الجمهور ﴿يَأۡكُلُ﴾ بالياء، مسندًا إلى ضمير الغائبِ العائدِ إلى الرَّسول ﷺ، والمعنى: نراهُ يأكلُ منها - كلَّما أراد - لتكفيَه عن المشي في الأسواق، وتُغنيه عن مخالطة العامَّة والدَّهماء، وغير ذلك ممّا لا يليق بالأنبياء والمرسَلين، وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلَف: ﴿نَأۡكُلُ﴾ بالنّون[1]، مسندًا إلى ضمير المتكلِّمين، والمعنى: (نراها بأعيننا، ونأكلُ منها بأنفسِنا؛ لتكونَ دليلًا محسوسًا على تَميُّزِه عنّا، واختصاصِه بالرِّسالة من بيننا، كما أنَّ أكْلَنا منها أجلبُ لنا إلى اتِّباعه، وأعونُ على الإيمان به)، وفيه مزيدُ مُكابرةٍ وفَرطُ تَحكُّمٍ ومخادعة[2].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 333.

(2) أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 5/ 87.

بلاغةُ أسلوبِ الكناية:

غايةُ المهاتراتِ التَّعجيزُ بالمطالبات

كنَّى المشركون بجملتي: ﴿يُلْقَىٰٓ﴾، و﴿يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾ عن استغنائِهِ بالكنز، وكفايتِه بالأكل من الجنَّة عن مخالطة النّاس في الأسواق وغيرها من الأماكن، الَّتي يغْشونَها لطلب المال والطَّعام، ولا يمنع ذلك من أنَّهم يُريدون المعنى الحقيقيَّ لكلٍّ منهما، بغرض تعجيزِهِ وإثباتِ أنَّه ليس رسولًا؛ لأنَّه لا يمتازُ عنهم بشيءٍ.

توجيهُ ترتيبِ المطالب:

التَّنزُّلُ مِنَ الأعلى إلى الأدنى

قُدِّمَ طلبُ إنزال المَلَك على غيره؛ لأنَّه أعظمُ البراهين وأكثرُها تعجيزًا من وجهة نظرهم، وثنّوا بطلب تلقّي الكنز؛ لأنَّه يليهِ في العظمة والفخامة، وختَموا بتخصيص الجنَّة؛ لأنَّها أقلُّها وأهونُها، كما يعتقدون، فالترتيب ترتيبٌ تنازليٌّ، يبدأ بالأعلى، وينتهي بالأدنى.

معنى الواو ودلالتها:

التَّعجيبُ من تمادي الكافرين في افتراءاتهم على الأمين

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للعطف على جملة: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا﴾؛ لغرضِ التَّعجيب من تماديهم في الافتراء عليه، حيث أضافوا إلى ما قالوه تهمةً أشنعَ وأقبحَ، وهي اختلالُ العقلِ؛ بسبب وقوعِه تحتَ تأثير السّاحرينَ وإفكِهم، والجملةُ شروعٌ في بيان الفِرْيَةِ السّادسة التي افتراها الظالمون من الكافرينَ على الرَّسول ﷺ، ونلمحُ أنَّ كلَّ تلك الافتراءات أوصلَتْهم إلى هذه النَّتيجةِ الحاسمة، فالشَّخص الذي يتصرَّف تصرُّفَ الرِّجال العاديّين - من أكْلِ الطَّعام والمشي في الأسواق، ثم يدَّعي أنَّه مرسلٌ من الله، ولا يُقدِّم البيِّنات القاطعة على رسالته - يَنتجُ عنه أنَّه رجلٌ عاديٌّ، بل هو رجلٌ مسحورٌ فاقدٌ للعقل، أمّا كونُه رجلًا عاديًّا؛ فلأنَّه يُزاول حياتَه اليوميَّةَ مثلنا، وأمّا كونه مسحورًا؛ فلأنَّه فاقدٌ للدلائل القاطعةِ على دعواه الرِّسالة.

نكتةُ العدولِ عن صفةِ الكفر إلى الظُّلم:

أُسنِد فعلُ القول إلى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مُعَرَّفًا؛ للتَّشهير بالقائلينَ، والتَّشنيعِ بصنيعهم، وبيانِ أنَّهم جاوزوا كلَّ الحدود، وجاؤوا بإضلالٍ لا نظيرَ له، وبلغوا في الظُّلم حدَّهُ الأعلى الذي لا زيادةَ عليه، ولو أتى بلفظ: (الكافرون)؛ لخَلا البيانُ ممّا يدلُّ على ظلمهِم واعتدائِهم في افتراءاتِهم على الرَّسول ﷺ بصفةٍ عامَّةٍ، وافترائهم عليه بالوقوع تحتَ تأثير السَّحرة بصفةٍ خاصَّةٍ، وهو ما أراد النَّظمُ إبرازَهُ؛ زيادةً في التَّشنيع والتَّشهير، ولا يبعدُ أنْ يكونَ هذا الافتراء صادرًا من الظّالمين من الكافرين، كما يدلُّ عليه قول المفسرين أنَّ هذه المقولة بعينها صدرتْ من (عبد الله بن الزبعري)[1]، في حين أنَّ الافتراءاتِ السّابقة قد صدرت من عموم الكافرين، ولهَجوا بها.

أشدُّ أنواعِ الكفرِ المقترنِ بالظُّلم

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

مقتضى الظّاهر أنْ يُسند الفعلُ إلى الضَّمير، فيقال: (وقالوا) عطفًا على ما تقدَّم، ولدخولِهِ في حكم السّابق، ولكنَّ النَّظم القرآنيَّ عدلَ عن الإضمارِ إلى إظهار الفاعل، فعبَّر بـ: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لاختلاف الوصف، فلمّا أراد أن يذكرَ صفة الظُّلم، وأن يُنبِّه على خطره؛ كان إظهاره هو الأوفقَ بعمود البلاغةِ، وهو الخادمُ لمقصود الكلام، وهذا مبنيٌّ على أنَّ الظالمين هم الكافرون، ولكنْ يحتملُ أنَّه أراد بالظالمين هم الذين جمَعوا بين الكُفر والظُّلم من عُتاة الكافرين وكُبرائهم، فيكونُ التَّصريح بهذا الوصف للدِّلالة على شناعة هذه الفِرية مقابلَ الافتراءات السّابقة، التي كانت تكتفي بطَلب المعجزات، لكنَّ الفريةَ الأخيرة كانت تحكُم على الرَّسول الكريم ﷺ بالوقوع تحت تأثير السِّحر والاختلال العقليِّ.

إظـهـارُ وصـف الظُّلمِ زيـادةٌ في التَّـشـنـيـع على الكافرين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 329.

نوعُ ﴿إن﴾ ودلالتها:

﴿إن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ حرفُ نفيٍ، آثَروا التَّعبيرَ به؛ لما يُفيده من الإبلاغ في تأكيدِ الاتِّباع معنًى وجرسًا، ولكونه موصلًا للقصر بـ﴿إِلَّا﴾.

بلاغةُ المجازِ المرسَلِ في لفظ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾:

التَّخويفُ من عواقب الاتِّباع، ومآلات الاستماعِ

قولهُ تعالى: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ فعلٌ مضارعٌ، أوثرَ التَّعبير بمادَّته؛ لما يدلُّ عليه بجانب الاستمرار التجدُّديِّ من استحضارِ المخاطَبين لصورتِهم، وهم يهتدونَ برجلٍ، فقدَ عقلَه، ويفعلونَ ما يأمُرُهم به، كأنَّهم يَرَوْنَها؛ بغرض شدَّة تنفيرِهم منها، ويحتملُ لفظُ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ الحقيقةَ؛ إنْ كان الخطاب للمؤمنين به والجدال معهم، وفيه تهكُّمٌ واستخفافٌ بعُصبة المؤمنين، ويحتمل إرادة المجاز المرسَل؛ إنْ كان الخطابُ يُجرونه فيما بينهم، بذكر اللّازم وهو الاتِّباع وإرادة الملزوم وهو سماعُ النّاس من رسول الله ﷺ القرآنَ الذي يستلزم الاتِّباع لرجلٍ مسحور؛ للتَّخويف من عواقب الاتِّباع، ومآلات الاستماع؛ إذ الاستماعُ يوصل للاتِّباع، وبما أنَّه رجلٌ مسحورٌ، فيكونُ في الاستماع إليه تضييعًا للأوقات ومجلبةً للنقائص.

دلالةُ تنكير ﴿رَجُلًا﴾:

كلُّ المقدِّمات المتوهَّمة أوصلَتْهم إلى هذه النَّتيجة الخاطئة

جيء بلفظ ﴿رَجُلًا﴾ لإثبات أنَّه واحدٌ منهم، فهو ليس مَلَكًا، ونُكِّر بقصدِ التَّقليل من شأنِه؛ فهو رجلٌ كباقي الرِّجال، لا يزيدُ عنهم بشيءٍ، وإن زاد؛ فهو رجلٌ مسحورٌ، فقد انتقى هؤلاء الظّالمون هذا اللَّفظَ الموصوف؛ لكي يبنوا عليه وصفَ (المسحور)، واختاروه دونَ غيره لإثباتِ أنَّه مجرَّدُ رجلٍ عاديٍّ، لا يحملُ رسالةً ولا يتَّصفُ بشيءٍ من صفاتِ المرسَلين، الذين كما توهَّموا تصطحبُهم الملائكةُ، أوْ تُلقى إليهم الكنوز، أوْ يملكون جنّاتٍ وأنهارًا، وما دام أنَّه لا يتَّصفُ بشيءٍ من ذلك؛ فهو رجلٌ عاديٌّ، بل هو أسوأ حالًا من ذلك؛ ولذا وصفوه بأنَّه مسحورٌ.

غرضُ الوصفِ بصفة السِّحر:

تـأكـيـدُ بشريَّة الرسول وزيادة الـتَّـنـفـير من اتِّباعه

وصفَ المشركون ﴿رَجُلًا﴾ بصفةِ ﴿مَّسۡحُورًا﴾؛ تأكيدًا لبشريَّته، وزيادةً في التَّنفير من الاستماع إليه واتِّباعه والإيمان به؛ لأنَّه إذا كان الرَّسولُ لا يصحُّ أن يكون بشرًا، فكيف به إذا كان بشرًا مسحورًا، لا يعي ما يقول، ولا ينتبهُ لما يتحدَّثُ به؟ فهو رجلٌ كباقي الرِّجال؛ لأنَّه يأكلُ الطَّعام، ويمشي في الأسواق، وهو مسحورٌ لا يعي ما يدَّعيه من مقتضياتِ كونِه رسولًا، وهو تأييدُه بالآيات الجازمة بما يقولُه ويدَّعيه.

غرضُ استعمال أسلوبِ القصر:

تـأكـيـدُ نفي الرِّسالة وإثباتُ وقـوعِـه تحت طائلة السِّحر

في جملة ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾ قصرُ صفةٍ على موصوف قصرًا إضافيًّا، بطريق النَّفي والاستثناء، الذي يُستعمل للتَّأكيد؛ لأنَّه يزيد المعنى تأكيدًا بطريقتَين: **الأولى**: نفيُ اتِّباع المخاطَبين رسولًا من عند الله، **والأخرى**: إثباتُ اتِّباعهم لرجلٍ واقعٍ تحت تأثير السَّحرة، فلا يقولُ إلّا سحرًا، ولا يفعلُ إلّا سحرًا، ولا علاقة لما يقوله، أوْ يفعلُه بالوحي من قريبٍ أوْ بعيد، وقصدُ الظّالمينَ من تأكيد هذا الاتِّهام الشَّنيع: تنفيرُ الناس بصفةٍ عامَّة، والمؤمنين بصفةٍ خاصَّة من اتِّباع الرسول ﷺ، وحثُّهم على الانصراف عنه، وعدمِ الإيمان به، وفي هذا القصرِ ما يحمل معنى التشبيه، وكأنَّ أصلَ الكلام: ما هذا الذي تسمعونَ لكلامه إلّا مثلَ رجلٍ مسحور، ولذا ترتَّب عليه قوله الآتي: ﴿ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»